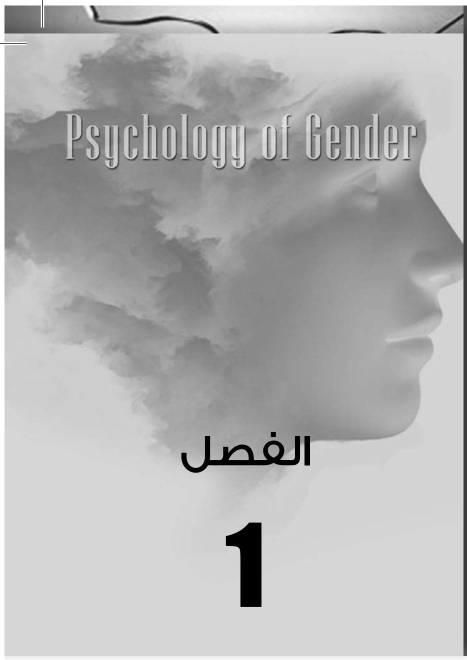

الفصل

1

المقدمة

Introduction

الشكل (1.1) تم وضع بندانا/ قوس على شعر هذه الطفلة لتُعطي للمجتمع إشارة على أنها أنثى.

المصدر: Kiley, Lee Anne "Shanaon Kiley" 2005).

وُلِدت ابنتي عام 1998، ووُلدت معها تجربتي الشخصية في علم نفس الجندر. وكداعية للمساواة بين النساء والرجال في الفرص، والمعاملة اعتقدت أن تطبيق هذه الدعوة يجب أن يبدأ من المهد. فحاولت أنا وزوجي منذ البداية أن لا ندع الجندر يطغى على اختيارنا لألعاب "كاتيا" (Katja) وملابسها. وواجهنا في ذلك صعوبة أكبر بكثير مما توقعنا. ووجدنا عددًا لا بأس به من الألعاب والملابس "غير المصنّفة جندريًا" للأشهر الأولى من العمر، غير أن الحال أخذ يختلف في عمر السنة حيث تبدأ المحلات التجارية في فصل ألعاب الجنسين وملابسهم كل في قسم خاص، وليس هناك سوى أرضية صغيرة مشتركة بينهما. وأدركتُ أخيرًا لماذا يضعون بعض الملابس غير المصنّفة جندريًا للأطفال الرضع: ذلك لأن العديد من الوالدين والراغبين في شراء الهدايا لا يكونون على علم بجنس الطفل قبل الولادة، ولكن الجميع سيعرفون ذلك في عمر السنة.

ولأنني لم أُلبس "كاتيا" ملابس ذات صبغة جندرية، عرفتُ أن الناس يبدؤون بفرضية أن الطفل ذكر ما لم تظهر دلائل تشير إلى غير ذلك. وهناك مؤشرات خاصة بالمظهر لا بد للأهل من مراعاتها لكي يتمكن الناس من معرفة جنس الطفل/الطفلة، فما من أهل يتمتعون برجاحة العقل لا يلبسون طفلتهم الأنثى ملابس زهرية اللون محاطة بالكشكش، ولا يضعون البندانا أو قوس الشعر على رأسها (كما في

الشكل 1.1) أو يتركون أذنيها دون ثقوب[لوضع الحلق؛ وجميع هذه المؤشرات أو بعضها على الأقل ضروري لكي يعرف الناس أنها أنثى] !

ولأنني لا أحب اللون الزهري (وهي ليست صدفة على الأرجح)، كان لدى "كاتيا" كثير من الملابس الزرقاء، والصفراء، والأرجوانية والحمراء. (ولكن اللون الزهري عاد ليطاردني عندما أصبحت "كاتيا" في عمر الرابعة وأصبح اللون الزهري هو لونها المفضل! ولكن ذلك لم يستمر أكثر من سنة وهي لا تحب اللون الزهري الآن. وسننظر في ظاهرة الفستان الزهري المزخرف في الفصل الخامس من هذا الكتاب). وعندما كنا نحملها في تجوالنا كطفلة، كان الناس في أماكن التسوّق يداعبونها بطريقة تنم عن اعتقادهم بأنها ولد لطيف. وعندما نذكر لهم أنها بنت، يجيبون وكأنهم يوبخوننا على نحو غير مباشر لأننا لم نُبرز الإشارات المناسبة: كاللون الزهري، والكشكش، وأقواس الشعر (البندانا). وكان بعضٌ من الناس يستدرك حين نشير إلى أنها بنت قائلاً إنها لا بد أن تكون بنتاً لأن شعرها غزير. أما أنا فلا أعرف دليلاً على أن البنات يولدن بشعر أغزر من شعر الأولاد. وعلمت بمفارقة مثيرة للاهتمام، وهي أن الجنين يتشكل بيولوجيًا كأنثى في البداية (بمعنى أنه عند الإخصاب، يكون أنثى ما لم يتعرّض للهرمونات الذكرية)، ولكن الافتراض الاجتماعي هو أن الطفل يكون ذكراً ما لم تظهر الإشارات الاجتماعية الدالة على الأنوثة. وعند رؤية الطفل/الطفلة للمرة الأولى لا يُعتبر افتراض أن البنت ولد أمراً مهيناً بقدر ما يُعتبر افتراض أن الولد بنت أمر مهين، أو مستفز. وعندما كان أحدهم/إحداهن يخطئ في افتراض أن "كاتيا" ولد لم أكن أستغرب، فكيف يمكنك أن تعرف جنس الطفل/الطفلة في هذا العمر؟ ولكن الخطأ في الافتراض هذا كان يعقبه اعتذار شديد، خشية أن يكون قد ألحق بي شيئاً من الإهانة.

وعند السنة الأولى من العمر لا نجد كثيراً مما هو مشترك في ملابس الأولاد والبنات. وبالنظر إلى بنطال الجينز في القسم الخاص بملابس الأولاد نجده بسيطاً وبلا زركشة ولكننا نجده مزركشًا بالأزهار والكشاكش والخرز في القسم الخاص بالبنات. ويكون البنطال القصير (الشورت) بسيطًا في قسم الأولاد ولكننا نجده محاطًا عند الخصر برفراف في قسم البنات ليبدو وكأنه "تنورة". وتُغطّى ملابس البنات بتشكيلة مدهشة من الأزهار، كما يُتوقع أن تلبس البنات فساتين. فكيف يمكن أن يلعبن بالرمل وهن يلبسن فساتين، ناهيك عن أن يتسلقن شجرة أو يركضن؟ ولا نستطيع حتى أن نجد جوارب مشتركة للأولاد والبنات، فهناك جوارب للأولاد وجوارب للبنات، وليس من الصعب علينا أن نُخمّن أي منهما محاط بالكشاكش.

إن الفكرة التي أحاول أن أنقلها هنا هي أن الجنس يُشكّل صنفاً اجتماعياً كبير الأهمية بالنسبة لنا كمجتمع. والحقيقة أن الجنس هو واحد من التصنيفات الأولى التي يتعلمها الأطفال، ذلك لأنه: (أ) يعتبر صنفاً شاملاً لفئتين فحسب (ب) تُعتبر هاتان الفئتان مستقلتين عن بعضهما تمامًا، (ح) نستطيع تمييز أفراد هاتين الفئتين على الفور عند مقابلتنا لهم (Zemore,Fiske, & Kim, 2000). وأول ما نرغب

في معرفته عند رؤيتنا رضيعاً هو معرفة جنسه/جنسها ، كما أن أول ما نلاحظه عند مقابلتنا شخصاً سواء أكان طفلاً أم راشداً هو جنسه/جنسها. هل وجدت نفسك في موقف لم تعرف أو تعرفي جنس شخص في موقف ما، أو أنك أخطأت في التعرف إليه؟ أذكر أنني كنت في أحد المتاجر المختصة بالملابس النسائية الداخلية (وهو فيكتورياز سيكرت) مع ابنتي الشابة وداهمنا المحاسب بسؤال يتعلق بمن قام من العاملين/العاملات في المتجر بمساعدتنا في شراء حاجياتنا. وتلكّأنا في الإجابة نظرًا لأننا لم نكن متأكدتين من جنس الشخص فلم نستطع استخدام الضمير المناسب للإشارة إليه بهي أو هو. (وبما أننا كنا في هذا المتجر بالذات كان يُتوقع أن يكون العامل الذي ساعدنا أنثى ولكنه تبيّن لنا فيما بعد أنه كان ذكرًا!) لماذا تزعجنا مثل هذه المواقف إلى هذا الحد؟ لماذا نريد أن نعرف جنس الشخص لكي نتمكن من التفاعل معه/معها؟ إن جنس الشخص – أو جندر الشخص (وسنقوم بالتمييز بين المصطلحين في الجزء التالي من هذا الفصل) – يترك أثرًا على مشاعرنا، وعلى اعتقاداتنا، وسلوكنا إزاء ذلك الشخص. فالجندر الخاص بنا يؤثر في مشاعر الآخرين إزاءنا، وفي أفكارهم بشأننا، وفي سلوكهم نحونا – وربما يؤثر أيضاً في مشاعرنا إزاء أنفسنا وفي أفكارنا بشأنها.

وقد خضع الجندر للبحث العلمي الدقيق لما يزيد عن القرن الآن. وجرت مناقشة أوجه الشبه والاختلاف بين الذكور والإناث، وطُرحت، ولا تزال تُطرح أسئلة من مثل: هل الذكور أقدر من الإناث في الرياضيات؟ هل الإناث أكثر عاطفية من الذكور؟ هل الذكور أكثر عدوانية من الإناث؟ هل يمتلك الذكور والإناث قدرات متساوية لدخول مجالات الهندسة، والتمريض، والمحاماة؟ وتجري الدراسة العلمية المتفحّصة لأثر كوننا ذكورًا أو إناثًا على علاقاتنا وصحتنا: فهل تتميز علاقات النساء عن علاقات الرجال بقدر أكبر من القرب؟ هل للزواج مردود أفضل على صحة الرجال مما له على صحة النساء؟ هل النساء أكثر اكتئابًا من الرجال؟ هل الرجال أقل استعدادًا من النساء للبحث عن علاج لمشكلاتهم الصحية؟

لا بد أن نكون قد فكرنا ببعض هذه الأسئلة، وربما نكون على ثقة بأننا نعرف الإجابة عن بعضها؛ فموضوع الجندر موضوع يخصنا جميعًا. مَن المرأة التي تشك مثلاً في أن الرجال أقدر من النساء على معرفة الطرائق والوصول إلى الأماكن المقصودة دون اللجوء إلى كثير من طلب المساعدة من المارة؟ ومَن الرجل الذي يشك في أن النساء يمِلن إلى اجترار المشكلات أكثر من الرجال؟ ولدينا جميعًا كثير من الخبرات ذات الصلة بهذه المواضيع، ولكن ملاحظاتنا المرويّة ليست كالملاحظات القائمة على المناهج العلمية الموثوقة. والحقيقة أن الملاحظات المرويّة قد تكون متحيّزة باتجاه القول بوجود فروق بين الجنسين، في الوقت الذي لا تكون فيه فروق موجودة في الواقع لأن الفروق تلفت الانتباه أكثر من التشابهات،من جهة، ولأن اعتقاداتنا يمكن أن تحدد ما نرى، من جهة أخرى. وعندما ننظر إلى البحوث التي تقارن بين النساء والرجال سنرى أن الإجابة عن أسئلة الفروق والتشابه تكون معقدة عادةً؛ إذ يعتمد ظهور الفروق على العديد من العوامل من مثل: المكان، والزمان، والمشاهدين، وخصائص القائم/القائمة بالملاحظة.

وسنتناول في هذا الكتاب البحوث التي أُجريت في ميدان علم نفس الجندر، مع توجيه انتباه خاص لأثر الجندر على علاقاتنا وصحتنا. وسنبدأ هذا الفصل من الكتاب بتعريف المصطلحات التي تُستخدم في دراسة الجندر، ثم نناقش كيفية النظر إلى الجندر في ثقافات أخرى متباينة. وأخيراً، سنختتم الفصل بتقديم نظرة شاملة إلى وجهات النظر السياسية والفلسفية التي تبناها الباحثون والباحثات في دراسة الجندر.

تعريف المصطلحات Definition of Terms

يحمل هذا الكتاب عنوان "علم نفس الجندر". فلماذا لم نُسمِّه "علم نفس الجنس" ؟ فما الفرق بين الجنس والجندر؟ وهل الجندر هو المصطلح الأصح من الناحية السياسية؟ إن أُولَى المهمات التي علينا تولِّيها الآن هي تعريف هذه المصطلحات وغيرها من الأفكار المتصلة بالجنس والجندر.

ولعل مهمتنا الأولى في هذا الصدد هي التمييز بين الجنس (Sex) والجندر (Gender). ويشير الجنس إلى الصنفين البيولوجيين الخاصين بالجنس وهما الأنثى والذكر، وهاذان الصنفان يتحددان بالجينات، والكروموزومات، والهرمونات، وليس للثقافة أي تأثير على جنس الفرد. والجنس بحد ذاته خاصية ثابتة نسبيًا، ولا تتغير بسهولة، رغم أن التكنولوجيا الآن تتيح للناس تغيير جنسهم. وبالمقارنة، فإن الجندر صنف أكثر مرونة؛ وهو يشير إلى صنفين اجتماعيين يتمثلان في الذكر والأنثى، ويتمايزان عن بعضهما بعضاً من خلال منظومة من المظاهر النفسية والخصائص المتصلة بأدوار أولاها المجتمع لِصنفيْ الجنس البيولوجيين. ما الملامح السيكولوجية أو النفسية التي يعيّنها المجتمع لكل جنس؟ ينسب المجتمع سمة العاطفية للنساء، وينسب سمَة التنافسية للرجال. وهذه السمات هي ملامح جندرية (مرتبطة بالجندر) وليست ملامح جنسية (مرتبطة بالجنس). وفي حين يُعرّف الجنس التعريف ذاته عبر الثقافات، تختلف مواصفات الجندر لأن كل مجتمع له وصفته الخاصة لما يجب أن يكون عليه سلوك الرجال ولما يجب أن يكون عليه سلوك النساء. وبالمقابل، نجد أن الصنف الخاص بالذكر من صنفيْ الجنس يتضمن كروموزوم (Y) كملمح من ملامحه بغض النظر عما إذا كان الذكر يلبس قبعة "بيسبول" أو مشابك شعر، أو ما إذا كان يتصف بالتنافسية أو التعاطفية، هو يُصنّف ذكر لأنه يحمل كروموزوم (Y). أما الشخصية والمظهر فيتصلان بصنف الجندر؛ فتشكل الرعوية (Nurturance) – الميل إلى رعاية الآخرين – ملمحًا من ملامح صنف جندر الأنثى؛ فالشخص الذي يهتم بالآخرين ويرعاهم ينسجم في هذا السلوك مع مواصفات الصنف الاجتماعي الخاص بالإناث. والملمح الآخر من ملامح الصنف الجندري الخاص بالأنثى في الولايات المتحدة هو ارتداء "التنورة" (Skirt)؛ فحين نصادف شخصًا في هذا البلد يلبس تنورة، نستطيع الافتراض أن هذا الشخص أنثى من الوجهتين النفسية والبيولوجية. غير أن ارتداء التنورة في اسكتلندا لا يقتصر على جنس الإناث لأن جنس الذكر البيولوجي لا يضيره لبسها في ذلك البلد؛ لذلك فإننا لن نقول بأن ارتداء

التنورة يمثل ملمحًا من ملامح صنف الجندر الخاص بالذكر أو الخاص بالأنثى في اسكتلندا. والثقافة الأميركية هي التي ترى التنورة كلباس أنثوي، أما الثقافة الاسكتلندية فلا ترى ذلك. وعليه، فإن مضمون الأصناف الجندرية – وليس الأصناف الجنسية – يتأثر بالمجتمع، وبالثقافة، والزمن.

والآن، بعد أن ميّزنا بين المصطلحين الأكثر أهمية في هذا الكتاب، لا بد أن نشير إلى أن هذا التمييز أو التفريق نادرًا ما يُوظَّف على هذا النحو في التطبيق العملي. فالعامة، كما العلماء كثيرًا ما يستبدلون المصطلح منهما بالآخر دون تدقيق؛ فنجد المقالات التي تُنشر في الصحف كما المقالات التي تُنشر في المجلات العلمية تستخدم هذين المصطلحين دون تدقيق بالمعنى المحدد لكل منهما. وحتى الرابطة الأمريكية لعلم النفس لا نجدها متسقة دائماً في استخدامها لهما. مثال ذلك، عند إرسال مقالة للنشر في مجلة علمية، كثيرًا ما يستبدل المحرّر تعبير "الفروق بين الجنسين" "بالفروق الجندرية". وربما تشير المقالة ببساطة إلى الفروق بين الناس المختلفين بيولوجيًا في جنسهم دون النظر بأي شكل إلى صفاتهم السيكولوجية، وبناء على ذلك، فإن المصطلح الصحيح سيكون الفروق بين الجنسين [لأن المقارنة هنا بين مجموعتين مختلفتين في الجنس]. غير أن بعضهم يعتقد أن تعبير "الفروق الجنسية" يعني ضمنيًا أن أساس الفرق بيولوجي. ولكن، إذا أجرينا دراسة للمقارنة بين الذكور والإناث في الاستدعاء على مهمة تذكر ووجدنا أن الإناث تفوقن فيها على الذكور أو أن الذكور يتفوقون على الإناث في لعبة فيديو، فهل نملك الدليل على أن الفرق في أي من هاتين الحالتين يعود إلى البيولوجي؟ لا، وسيكون المصطلح الأفضل لوصف هذه الفروق هو "السلوك المرتبط بالجنس" (Sex – Related Behavior). وهذا المصطلح يعني ضمنيًا أن السلوك مرتبط بجنس معين، ولكنه لا يقول شيئًا عن مسببات الفرق [لأن الاختلاف بين الجنسين لا يقتصر على الجوانب البيولوجية].

أما المصطلح الذي يعكس أثر المجتمع على الصنفين البيولوجيين: الذكر والأنثى، فهو مصطلح "الدور الجندري" (Gender Role). والدور هو موقع اجتماعي تُصاحبه منظومة من المعايير والتوقعات. مثال ذلك، دور الطالب/الطالبة الذي يقوم به كل منا. فما التوقعات التي تصاحب هذا الدور؟ لا شك أن الدراسة هي أحد التوقعات الرئيسة المصاحبة لهذا الدور، أما التوقع الآخر فهو الاختلاط بالأصدقاء/الصديقات وربما السهر معهم حتى ساعة متأخرة، وفي هذه الحالة قد ينشأ تضارب بين متطلبات الدور ذاته.

ويشير الدور الجندري إلى التوقعات [الاجتماعية] المحيطة بالذكر وما يقابلها من توقعات محيطة بالأنثى. فنحن نتوقع عادةً أن يكون الرجال أقوياء، يتمتعون بالاستقلالية، ويميلون إلى التنافسية، ويخفون انفعالاتهم. وهذه ملامح خاصة بالدور الجندري للذكر. وبالمقابل، نتوقع من النساء عادةً أن يكن لطيفات، يعبرن عن عواطفهن، ومستعدات لرعاية الآخرين ومساعدتهم، وهذه هي الملامح الخاصة بالدور الجندري للأنثى. وبعبارة أخرى، نتوقع من الرجال أن يتحلوا بالذكورة، ونتوقع من النساء أن

يتحلين بالأنوثة. وتشمل الذكورة سمات شخصية، وسلوكات، واهتمامات حدّدها المجتمع للدور الجندري للذكر. فالثقة بالنفس سمة ذكورية، والعدوان سلوك ذكوري، ومشاهدة المباريات الرياضية اهتمام/ميل ذكوري. وتشمل الأنوثة سمات، وسلوكات، واهتمامات حددها المجتمع للدور الجندري للأنثى. فالانفعالية/العاطفية سمة أنثوية، ومساعدة الآخرين سلوك أنثوي، والطبخ اهتمام أنثوي. وسنناقش المضامين السيكولوجية للأنوثة والذكورة بمزيد من التفصيل في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

وعندما تتضارب التوقعات ضمن الدور الواحد، كمثال الطالب الذي أشرنا إليه قبل قليل، نشهد حالة صراع تعرف بحالة صراع ضمن/داخل الدور (Intrarole Conflict). ما الذي يجعل المرأة تمر بحالة صراع ضمن دورها الأنثوي؟ هناك كثير من الأمثلة على ذلك، إذ يُتوقع من النساء أن يكنّ عاطفيات ويُعبرن عن مشاعرهن، وفي الوقت ذاته يُتوقع منهن أن يكن حساسات لمشاعر الآخرين. وعليه، هل يجب أن تعبر المرأة لزوجها عن عدم سعادتها في الزواج وتفصح له عن تلك المشاعر؟ فإذا عبرت عن مشاعرها، تكون منسجمة مع التوقع المتعلق بالتعبير عن المشاعر، ولكنها تُناقض بذلك التوقع المتعلق بعدم جرح مشاعر الآخرين. وما الذي يجعل الرجال يمرون بحالة صراع ضمن الدور الجندري الذكوري؟ إن أحد التوقعات المحيطة بالرجال هو التوقع بأن يكونوا منجزين؛ كما ويتوقع منهم أن يكونوا مستقلين ولا يطلبوا المساعدة. فماذا عسى الرجل أن يفعل إذا رغب بالالتزام بمقتضيات دوره الجندري ولم يستطيع في الوقت ذاته أن يسبر العلاقات بين الأمور الشائكة وحده؟ فإذا سأل طالبًا المساعدة، فإنه سيحقق الإنجاز الذي يريد ولكن على حساب هدف آخر: ألا وهو الظهور بمظهر المستقل. وحين يكون للدور موجّهات معينة فإن ذلك لا يعني أن هذه الموجهات لن تتضارب فيما بينها من وقت لآخر؛ والأدوار الجندرية ليست استثناءً لهذه القاعدة.

وعندما تتضارب التوقعات المتعلقة بدور ما مع التوقعات المتعلقة بدور آخر نواجه الحالة المعروفة بحالة "الصراع بين الأدوار" (Interrole Conflict). وبما أننا نتولى أدوارًا أخرى إلى جانب دورنا الجندري، فما الأدوار التي تتضارب مع الدور الجندري؟ ولإعطاء مثال قريب، نأخذ دور الطالبة/الطالب واحتمالات تضاربه مع الدور الجندري للأنثى والدور الجندري للذكر على السواء. فحين نتوقع من الطالب الجلوس بهدوء في غرفة المحاضرة، فإننا نلزمه بدور سلبي يتضارب مع الجانب النشط من الدور الجندري الذكوري. وحين نتوقع من الطالبة المشاركة في النقاشات التي تجري في غرفة السيمنار الخاصة بالدراسات العليا -والتي قد تتضمن جدلاً حادًا- فإن هذا الدور النشط، المؤكد للذات قد يتضارب مع توقعات الدور الجندري للأنثى. وإذا ما أخذنا بالاعتبار الأدوار التي نتولاها في علاقاتنا، فهل نجد أن أدوارنا كأصدقاء/صديقات أو كأبناء/بنات تتضارب مع دورنا الجندري؟ قد يتعرض الطالب الذكر الذي يشارك في مشروع جماعي لصراع بين معيار الاستقلالية المتضمن في دوره الجندري وبين معيار العمل المشترك مع الزملاء في المشاريع الجماعية، والصعوبة هنا تكمن في أن معايير هذين الدورين تتضارب.

ويقودنا الصراع بين الأدوار أحياناً إلى مخالفة المعايير المرتبطة بأدوارنا. فما النتائج التي تترتب على السلوك بطرائق تخالف المعايير؟ قد تكون هذه النتائج بسيطة وقد تكون خطيرة؛ ويعتمد ذلك على أهمية المعيار أو محوريته للدور المعين ومدى ما يدعو الموقف للالتزام بالدور. فالنتائج التي قد تترتب على طلب الذكر مساعدة ما تكون نتائج بسيطة، على الأرجح. وغير أن النتائج التي تترتب على ارتداء الذكر فستاناً (إلا إذا جرى ذلك في حفلة تنكرية) ستكون نتائج وخيمة في الغالب، لأن عدم الظهور بمظهر أنثوي يعد متطلبًا أو معيارًا محوريًا للدور الجندري للذكر. وما النتائج التي قد تترتب على عدم إبداء العاطفة من قِبل الأنثى؟ سيعتمد ذلك ولا شك على الموقف؛ فالأنثى التي لا تعبّر عن مشاعرها في موقف عاطفي، كما في جنازة، سيحكم عليها بقسوة [كامرأة معدومة العاطفة]، في حين أن الأنثى التي لا تعبر عن مشاعرها في إطار غرفة الصف لن تتعرض لأي نتيجة سلبية على عدم إبداء المشاعر.

دعونا نفكر بالنتائج التي قد تترتب على مخالفتنا لمعايير دورنا الجندري، ونختبر آثار مخالفة المعايير المتعلقة به في التمرين (1.1) في البحث الجندري.

⚥ تمرين في البحث الجندري (1.1)

القيام بسلوك يتعارض مع الدور الجندري

ملاحظة من المترجمة: نضع هذا التمرين لا للتطبيق وإنما للنظر فيه وتخيّل العواقب التي يمكن أن تترتب على مخالفة معايير الدور الجندري عند قيام الشاب أو الفتاة بالسلوك المقترح.

مثال للذكور: كيف يمكن أن يستجيب الناس مِن حولك إذا قمت بما يلي:

- ارتداء فستان.
- وضع مكياج.
- طلب مرافق ليسير معك ليلاً إلى مقصدك في الجامعة [لأنك خائف].
- الذهاب إلى الصالون وطلي الأظافر بالمناكير.

ومثال للإناث: حاولي أن تتخيلي كيف يمكن أن يستجيب الناس مِن حولك إذا قمت بما يلي:

- تدخين غليون في العلن.
- مشاركة مجموعة من الشباب لعب كرة القدم.

- القيام بتصليح شيء في السيارة، كتغيير الزيت أو تبديل العجل، ووقوف رجل جانبًا [لا يشارك في التصليح].

1- كيف شعرت عند قيامك بذلك؟

2- كيف استجاب الآخرون؟

ومَن سيتكبّد القدر الأكبر من المعاناة نتيجةً لمخالفة معايير الدور الجندري، الإناث أم الذكور؟ يرى كثير من الناس أن الذكور يتعرضون لعقوبات أشد مما تتعرض له الإناث. ونلاحظ هذه الأيام أن النساء كثيرًا ما "يتصرفن كالرجال"، ولا نرى اعتراضًا على تصرفهن على هذا النحو بل نرى قبولاً أو حتى تأييداً وتشجيعاً. ونجد أنه من المقبول للنساء أن يلبسن البنطال، والبدلة، وما يشبه ربطة العنق، كما أصبح من المقبول أن تزاول المرأة أعمالاً كانت مقصورة تقليديًا على الرجال، مثل الطب، والمحاماة، وحتى أعمال البناء. وأصبح من المقبول مشاركة الإناث في الألعاب الرياضية (انظر/انظري الشكل 1.2).

ولكن، هل نقبل ارتداء الرجل ملابس كالبنطال الضيق؟ وهل نقبل أو نشجع الرجل في التمريض أو السكرتيريا بقدر ما نقبل أو نشجع عمل المرأة في هذه المجالات؟ وعند تصرف البنت كالولد نجده أمرًا مثيرًا للاهتمام ويقال لها: "حسن صبي" [استظرافًا]، أما الولد الذي يتصرف كالبنات فيقال له "بنوتة"، وتحمل تسمية "البنوتة" معانٍ أكثر سلبية من تسمية "حسن صبي". ولا يمانع الوالدان هذه الأيام من شراء ألعاب ولادية لبناتهم كالتركات ويشجعونهن على لعب الرياضة. ولكن، كيف يشعر الوالدان إذا أعطينا أولادهما الذكور دمىً ليلعبوا بها وأشغلناهم بإلباسها الثياب.

ويعتقد معظم الباحثين والباحثات في هذا المجال أن الرجال يعانون من تبعات سلبية لمخالفتهم الدور الجندري الخاص بهم أكثر مما تعاني النساء من مخالفتهن الدور الجندري الخاص بهن. ويذهب بعضهم إلى الاعتقاد بأن "الرجولة" أكثر هشاشة وعُرضة للشك في أمرها من "الأنوثة"، ويحتاج صاحبها لأن يثبتها باستمرار. وقد وجدت واحدة من الدراسات أن طلبة جامعيين وافقوا على إمكانية وصف الرجولة بالهشاشة أكثر مما وافقوا على وصف الأنوثة بمثل هذه الأوصاف (Vandello, Bosson, Cohen, Burnaford, & Weaver, 2008)

الشكل (1.2) كانت لعبة كرة القدم مقصورة على الذكور، ولكنها انتشرت مؤخرًا بصورة واسعة بين البنات.

مثال ذلك: وافق معظم الذكور والإناث من الطلبة الجامعيين على عبارات من مثل: "الرجولة شيء يصعب الفوز به وتسهل خسارته". أكثر مما وافقوا على عبارة "الأنوثة شيء يصعب الفوز به وتسهل خسارته". وكشفت إحدى التجارب أن الذكور الذين شاركوا في التجربة شعروا بقدر أكبر من القلق عندما تهدَّد دورهم الجندري من خلال إجراء تجريبي ، مقارنة بالإناث(Vandello, Bossom, Cohen, Burnaford, & Weaver,2008). حيث دُعي الطلبة في هذه التجربة إلى الاستجابة لاختبار معلومات وقيل لهم إما أنهم حصلوا على درجات قريبة من درجات أبناء جنسهم/جنسهن، (ومثّل هذا شرط اللاتهديد) أو قريبة من درجات أبناء/بنات الجنس الآخر (ومثّل هذا شرط التهديد للهوية الجندرية). فأظهر الذكور درجة أعلى من القلق بعد تعرضهم للشرط المهدّد مما أظهروا بعد التعرض للشرط غير المهدّد، في حين لم يظهر فرق في درجة القلق لدى الإناث في الشرطين السابقين.

لماذا يتعرض الرجال لتبعات أشد عند مخالفتهم الدور الجندري مما تتعرض له النساء عند مخالفتهن للدور الجندري الخاص بهن؟ ربما يكمن أحد الأسباب في التباين في مكانة الرجال والنساء؛ فالنساء اللاتي يأخذن من خصائص الدور الجندري للذكر ينتقلن إلى مكانة أعلى، في حين أن الرجال الذين يأخذون من خصائص الدور الجندري للأنثى تنحدر مكانتهم. ونحن نُعجب بالصعود إلى الأعلى ولا نُعجب بالنزول إلى الأدنى. وستتم مناقشة علاقة الجندر بالمكانة بتوسع أكثر لاحقًا في هذا الفصل.

ويُستعمل مصطلح الدور الجندري (Gender Role) تباديًا مع مصطلح الدور الجنسي (Sex Role). ولا أعرف حقيقة كيف أتعامل مع المصطلح الثاني منهما. ولا أرى استعمال مصطلح الدور الجنسي مناسبًا لأنه يخلط الصنف البيولوجي -وهو الجنس- بصنف اجتماعي هو الدور. لذلك، فإنه من المثير للاستغراب أن نجد واحدة من المجلات العلمية الرائدة في هذا المجال تحمل اسم "الأدوار الجنسية" (Sex Roles) بدلاً من "الأدوار الجندرية". وأُفضل استعمال مصطلح "جنس" عندما أُشير إلى الصنف البيولوجي للذكر والأنثى، واستعمال مصطلح "الجندر" و "الأدوار الجندرية" عندما أُشير إلى الصفات والخصائص السيكولوجية، والتوقعات التي نحملها حول هذين الصنفين.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: ما مدى التزام الأفراد بالمعايير الجندرية التي تحددها الثقافة (Ehrensaft, 2011)؟ لا شك أن هناك تبايناً في درجة هذا الالتزام، يفوق أحياناً ما هو مألوف؛ فهناك أفراد "غير ملتزمين بتاتاً " (Gender Nonconforming)، ولا يقبلون بالمعايير الجندرية، ويتصرفون بطرقٍ تتناقض مع الأدوار الجندرية التي تحددها الثقافة [بمعنى أنهم يرفضون الذكورة أو الأنوثة]. وهناك بالتالي تباين واسع في مدى قبول الأفراد للصنف النفسي - الاجتماعي الذي يُصاحب جنسهم البيولوجي. وتمثل "الهوية الجندرية" (Gender Identity) أو "هوية الدور الجندري" (Gender – Role Identity) أساساً إدراكنا لأنفسنا بأننا إناث- سيكولوجيًا - أو ذكور. ويُشار إلى الأفراد الذين تتطابق هويتهم الجندرية مع جنسهم البيولوجي بالمتطابقين جندريًا (Cis-gendered) في حين يُشار إلى الذين

لا تتطابق هوياتهم الجندرية مع جنسهم البيولوجي بالمتحولين جندريًا (Trans gendered). والشخص المتحول أو المغاير جندريًا قد تكون أنثى بيولوجيًا ولكنها تشعر سيكولوجيًا كذكر، وتختار أن تعيش كذكر. وهذا الفرد المتحول جندريًا قد يلبس ويتصرف كرجل، أي إنه يتبنى الدور الجندري للذكر. كذلك، فإن المتحولين جنسيًا (Transsexuals) يحملون هوية جندرية لا تتطابق مع جنسهم البيولوجي، ولكن لديهم فرصة ليغيروا جنسهم البيولوجي بالعلاج الهرموني أو بالجراحة ليتطابق مع هويتهم الجندرية. ويفوق عدد المتحولين من ذكر إلى أنثى عدد المتحولين من أنثى إلى ذكر بمقدار ضعفين إلى ثلاثة أضعاف (Lawrence, 2008). وربما يعود ذلك إلى أن المجتمع لا يحتمل السلوك الأنثوي الذي يصدر عن ذكر بمقدار ما يحتمل السلوك الذكوري حين يصدر عن أنثى [فتقوم الفئة الأولى من هاتين الفئتين بعملية تحويل الجنس من ذكر إلى أنثى ليتماثل سلوكها مع جنسها]. ويبدو أن الجنس البيولوجي لا يكون محسوماً أحياناً ويُفرز فئات لا تتفق مع المفهوم الثنائي للجندر، ومن هذه الفئات ذوو الجندر الهجين (Gender Hybrids)، وهم فئة تنظر إلى نفسها كمركب من الذكر والأنثى، أما فئة ثنائيي الجنس (Intersex) فيولدون بأعضاء تناسلية مبهمة ولكنهم يستطيعون إجراء عمليات جراحية لتغيير العضو التناسلي وتحقيق الاتساق البيولوجي.

وقد احتل المتحولون جندريًا موقعًا بارزًا في النقاش المتعلق بالجندر. وكان هؤلاء الأفراد يُصنفون وفق «الكتاب التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية (Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders) [الذي تصدره الرابطة الأمريكية لعلم النفس APA)، كاضطراب في الهوية الجندرية (Gender Identity Disorder). وقد ثار جدل مطول عندما أُلغي هذا الاضطراب من الصيغة المعدّلة للكتاب التشخيصي الذي صدر عام 2013 (DSM-5). انظر/انظري المادة الإثرائية (1.1) للاطلاع على هذا الجدل. وزاد من التعريف بهذه الحالة ظهورهم في الإعلام، ولعل أبرزهم شخصية صوفيا (Sophia) في المسلسل الشهير على إحدى الفضائيات الأمريكية. وكذلك ظهور اللاعب الأولمبي الفائز بالميدالية الذهبية "بروس جينر" (Bruce Jenner) الذي تحول إلى "كيتلن" (Caitlyn) وظهر كامرأة على غلاف مجلة "فانيتي فير" (Vanity Fair) – وأصبح الجميع يهتمون بمظهره.

Figure 1.3 Bruce Jenner, Olympic gold medalist, changed his biological sex in 2015 to become Caitlyn Jenner.

Source: Photograph of Caitlyn Jenner by Disney/ ABC/ Image Group LA is licensed under Creative Commons Attribution 2.0

مادة إثرائية (1.1)

استبدال اضطراب الهوية الجندرية بِ "الضيق المقترن بالهوية الجندرية"

استبدلت المراجعة الحديثة «للكتاب التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية» (DSM-5) "اضطراب الهوية الجندرية" (Gender Identity Disorder) بـ "الضيق المقترن بالهوية الجندرية". وخضع موضوع الإبقاء على "اضطراب الهوية الجندرية" في الكتاب التشخيصي أو حذفه، لجدل واسع. فرأى الذين حاربوا من أجل الإبقاء عليه أن الأفراد الذين يعانون من هذه الحالة يجب أن يكون بمقدورهم البحث عن علاج للضيق الذي ينجم عن التعارض بين الجنس والجندر لديهم بما في ذلك العلاج الطبي لتغيير الجنس. ولن تكون شركات التأمين على استعداد لتغطية تكاليف علاج مرض ليس له تشخيص معتمد. أما الذين دافعوا عن حذف "اضطراب الهوية الجندرية" فتمثّلت وجهة نظرهم في أن تصنيف الناس الذين لا يتطابق الجندر النفسي لديهم مع جنسهم البيولوجي كمرضى عقليين سيشكل وصمة لهؤلاء الأفراد، مما يقود إلى التمييز ضدهم وتفاقم حالة الضيق لديهم. ونوّه بعضهم إلى أن هذا الجدل يذكّر بالجدل الذي تلى حذف المثلية الجنسية من كتاب التشخيص (DSM) كاضطراب عام (1980). وفي النهاية، تم حل الإشكال باستبدال "اضطراب الهوية الجندرية" بـ "الضيق المقترن بالهوية الجندرية"، والذي يُعرّف على أنه الضيق المقترن بالتعارض بين الجندر النفسي والجنس البيولوجي. لذلك، فإن بؤرة الاهتمام تنصبّ هنا على الضيق وليس على التعارض في الهوية. وهناك متطلبان أساسيان لتشخيص الحالة كضيق مقترن بالهوية الجندرية:

1. عدم التوافق بين الجندر النفسي والجنس البيولوجي.
2. الشعور بالضيق الناجم عن عدم التوافق، بما في ذلك إعاقة الفرد عن القيام بالوظائف اليومية.

ويتسم علاج الضيق المقترن بالهوية الجندرية بالتعقيد لدى الأطفال على وجه الخصوص (Spiegel, 2008). ويمكن للأطفال ووالديهم تأجيل قرار تغيير الجنس البيولوجي ليتطابق مع الجنس المفضل اعتمادًا على العلاج الذي يؤخر البلوغ وذلك بمنع إفراز الهرمونات، إذ إنه من الأسهل تغيير الجنس البيولوجي قبل النضج الجنسي. ولكن الطفل يجب أن يكون واثقًا من علاجه، ذلك لأنه عند تأخير البلوغ فإن الحقن بالهرمونات الجنسية الأخرى لتغيير الجنس البيولوجي، يؤدي إلى العقم.